كتابة النبي صلى الله عليه وسلم بين النفي والإثبات

Writing the Prophet, may God bless him and grant him peace, between denial and proof

حمزة عواد*

جامعة وهران 1 (الجزائر)

ملخص:

إن بحثي هذا مقسم إلى مبحثين رئيسين بعد المقدّمة, في كل منهما مطلبان, أولهّما يحوي مذهب من قال إنّه عليه الصلاة والسلام تعلّم الكتابة, وذكرَ دليله ومناقشته؛ والثاني فيه ذكر قول المانعين لكتابته صلى الله عليه وسلم وأدلّتهم ومناقشتها؛ ثم تأتي الخاتمة, التي حاولت الترجيح فيها اعتماداً على النصوص وأقوال أهل العلم.

الكلمات المفتاحية: النبي؛ الكتابة؛ النفي، الإثبات

Abstract:

My research is divided into two main topics after the introduction, in each of them two requirements, the first of which contains the doctrine of those who said that he, peace be upon him, learned writing, mentioned his evidence and discussed it. And the second in it mentioned the words of those who refused to write it, may God bless him and grant him peace, and their evidence and discussion. Then comes the conclusion, in which I tried to weight it based on the texts and the sayings of scholars.

*المؤلف المرسل

مقدمة:

الحمد لله ﴿**المَلِكِ القُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ, هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ, وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾, صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطّيبين الطاهرين, ورضي عن صحابته ووزرائه المجاهدين, الذين حفظوا لنا هٰذا الدّين, وكانوا سببا في بقائه إلىٰ هٰذا الحين, بحرصهم الشديد علىٰ تعلُّمه وتعليمه لمن تلاهم من التابعين, فجزاهم الله عنا خيرا.

ثم إنهم علىٰ كثرة علمهم فإن فيهم الأميّين, بل إنّ أكثرهم كذٰلك, وليس فيهم كاتب إلاّ أناسا معينين, إذ ليس ضروريّا أن يكونوا قارئين, وقد أدَّوا الأمانة كذٰلك كما كلّفهم ربّ العالمين.

وهم في ذٰلك مقتدون بسيد الأوّلين والآخرين, إذ كان أميّا صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب كما صرّح بذٰلك الكتاب المبين, وهٰذا واضح إذا ما استعرضت الآيات والأحاديث للاستدلال علىٰ ذٰلك, علىٰ أنه اختلف في أميته صلى الله عليه وسلم بعد بعثته, فأثبتها جمهور العلماء, ونفاها بعضهم لمّا تمكن النّبي صلى الله عليه وسلم , وادّعىٰ بأنّه عليه الصلاة والسلام كتب, واستدل ببعض الروايات من الأحاديث؛ وهٰذا موضوع مهمّ لمن تعلق به وبحثه.

وقد كان لي بعض الهمّة في معالجته منذ أمد طويل, أو على الأقلّ في معرفة الراجح فيه؛ فقيّض الله فرصة كهٰذه, أطلع فيها علىٰ ما قيل في المسألة, فأنا أعرضه علىٰ قلة بضاعتي, سائلا المولىٰ النفع.

والخلاف يعود أساسا إلىٰ قرن العالم الإمام أبي الوليد الباجيّ صاحب كتاب المنتقىٰ في شرح الموطأ رحمه الله تعالى؛ ورغم ذٰلك, لم أجد التفصيل المفيد الكثير, إلا عند المتأخّرين, أمثال الحافظ الذهبي, والحافظ ابن حجر وغيرهما, فعزمت على جمعه في هذا البحث المختصر.

وإن بحثي هٰذا مقسم إلى مبحثين رئيسين بعد هٰذه المقدّمة, في كل منهما مطلبان, أولهّما يحوي مذهب من قال إنّه عليه الصلاة والسلام تعلّم الكتابة, وذكرَ دليله ومناقشته؛ والثاني فيه ذكر قول المانعين لكتابته صلى الله عليه وسلم وأدلّتهم ومناقشتها؛ ثم تأتي الخاتمة, التي حاولت الترجيح فيها اعتماداً على النصوص وأقوال أهل العلم, سائلا المولىٰ أن يرزقنا السّداد والإنصاف وبلوغ الآمال، آمين.

عرض قول من نسبه صلى الله عليه وسلم إلى الكتابة:

لِيُعلمْ أن العلماء متّفقون علىٰ أن النّبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ كتابا ولا يخطّه بيده قبل البعثة, والنص في ذٰلك صريح, قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَآ تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**﴾ [العنكبوت 48], أمّا بعد البعثة, فقد ورد الخلاف عنهم.

ذكر قولهم وأدلته:

ذكر الإمام الباجي رحمه الله في دروس شرحه للبخاريّ[1] ,أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بيده الشريفة في قصّة الحديبية: "هٰذا ما قاضىٰ عليه محمد بن عبد الله", بناءً علىٰ ما يظهر من الحديث, ووافقه علىٰ ذٰلك علماء عصره, كالحسن بن علي التميمي المصري, وجعفر بن عبد الجبّار, وعبد الله بن الحسين البصري, وأبي الفضل جعفر بن نصر البغدادي[2], وقد كان له في مسألته سلف من مشايخه, فإنه لم يكن أوّل من قال بها, أمثال: أبي ذرّ الهروي, والسمناني, وأبي الفتح النيسابوري, وابن منية[3], وقد كان هٰذا القول سببا لمحنته رحمه الله[4], جعل أمير دانية يجمع العلماء لمناظرته[5], فحمل عليه هٰؤلاء, وعلى رأسهم أبو بكر بن أصبغ[6], حتىٰ إن منهم من رماه بالزندقة, بل كفّره, وأنشد شاعرهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبا[7]

ولهٰؤلاء العلماء أدلّة, فهموا منها أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة, نجملها فيما يلي من سطور:

1- كتاب الإشارة, أبو الوليد الباجي, ت: محمد علي فركوس, المكتبة الملكية, مكة المكرمة,ط1(1416-1996), ص109.

2- المصدر نفسه, ص112.

3- روح المعاني, سيد محمد الألوسي, دار الفكر, بيروت, لبنان, ط(1403), ج21, ص505.

4- سير أعلام النبلاء, شمس الدين الذهبي, ت: محمد نعيم العرقسوسي وشعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة, بيروت, لبنان, ط(1405-1984), ج18, ص538.

5- كتاب الإشارة, المصدر السابق, ص110.

6- ترتيب المدارك, القاضي عياض, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1(1418), ج2, ص827.

7- المصدر نفسه, ج2, ص805؛ وسير أعلام النبلاء, المصدر السابق, ج18, ص540.

1) قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ** ﴾ الآية, فتقديم قوله تعالىٰ: ﴿**مِن قَبْلِهِ**﴾ علىٰ قوله سبحانه: ﴿**وَلاَ تَخُطُّهُ**﴾, كالصريح في الرجوع إلى ما قبله, فقالوا: يفهم من ذٰلك أنّه عليه الصلاة والسلام كان قادرا على التلاوة والخطّ بعد إنزال الكتاب, ولو لا هٰذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة[8].

2) الحديث الذي ورد في صلح الحديبيّة, وفيه كتبوا: "هٰذا ما قاضىٰ عليه محمّد رسول الله, قالوا: صلى الله عليه وسلم لا نقرّ لك بهٰذا, لو نعلم أنّك رسول الله ما منعناك شيئا, ولكن أنت محمّد بن عبد الله))؛ فقال: {أنا رسول الله, وأنا محمّد بن عبد الله}, ثم قال لعليّ: {امح رسول الله}, قال عليّ: صلى الله عليه وسلم والله لا أمحوك أبدا))؛ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب, وليس يحسن يكتب, فكتب: هٰذا ما قاضىٰ عليه محمد بن عبد الله "[9]؛ فقوله: "فكتب", ظاهر في نسبة الكتابة إليه صلى الله عليه وسلم , وأنه خطّه بيده الشريفة[10].

3) عن مجاهد[11] عن عون بن عبد الله قال: صلى الله عليه وسلم ما مات رسول الله حتىٰ كتب وقرأ))، قال مجاهد: صلى الله عليه وسلم فذكرته للشعبيّ, فقال: صلى الله عليه وسلم صدق, سمعت من يذكر ذٰلك)).))[12].

4) ما روي من طريق يونس بن ميسرة عن أبي كبشة السلوليّ عن سهل بن الحنظليّة, أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم أمر معاوية أن يكتب للأقرع وعيينة, فقال عيينة: صلى الله عليه وسلم أتراني أذهب بصحيفة المتلمس؟))، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة, فنظر فيها, فقال: {قد كتب لك بما أمر لك}, قال يونس: صلى الله عليه وسلم فنرىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب بعدما أنزل عليه القرآن))[13].

8- روح المعاني, المصدر السابق, ج21, ص505.

9- رواه البخاري, كتاب المغازي, باب عمرة القضاء,

10- فتح الباري, الحافظ ابن حجر, ت: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب, دار المعرفة,بيروت لبنان, (د.ط), (د.ت), ج7, ص503؛ وروح المعاني, ج21, ص505.

11- كذا في الفتح ولعل صوابه مجالد باللام, انظر ص11 من هذا البحث.

12- الجامع لأحكام القرآن, القرطبي, ج13, ص352.

13- المصدر نفسه, ج21, ص352؛ وفتح الباري, ج7, ص504.

5) قوله صلى الله عليه وسلم : {ضع القلم على أذنك, فإنه أذكر لك}[14].

6) قوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية: {ألق الدواة, وحرف القلم, وأقم الباء, وفرق السين, ولا تعور الميم.}[15].

7) قوله صلى الله عليه وسلم : {ولا تمد بسم الله}[16].

8) الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أنس, قال صلى الله عليه وسلم : {رأيت ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها, والقرض بثمانية عشر}[17].

وهٰذه الأدلّة الأخيرة, وإن لم يثبت بها أنه كتب, فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة, فإنه أوتي علما جمّا[18].

مناقشة الأدلة:

بناء على الأدلّة الماضية, نشرع في مناقشة القول بأنه صلى الله عليه وسلم كان يكتب.

فالاستدلال بالآية لو سلم ما ذكر من الرجوع, لا يتمّ الإفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم[19], شرط أن لا تعارض مع أدلّة أخرىٰ, ولا ننسىٰ أن أدلّة كثيرة تثبت كونه ﷺ أميّا, وعلىٰ هٰذا الاعتبار فهو الأصل فيه, والناقل عن الأصل يحتاج إلى دليل صحيح صريح.

فالحديث الذي رواه البخاريّ, واستدلوا بظاهره, روي من طرق أخرىٰ عن غير عليّ من الصحابة, قال ابن حجر: "والكاتب فيها –أي القصّة– عليّ, وقد صرّح في حديث المسور بأنّ عليّا هو الذي كتب, فيحمل علىٰ أنّ النكتة في قوله: صلى الله عليه وسلم فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب)), لبيان قوله: {أرني إيّاها}, أنّه ما احتاج إلىٰ أن يريه موضع الكلمة التي امتنع عليّ من محوها, إلاّ لكونه لا

14- فتح الباري, المصدر السابق, ج7, ص504.
15- المصدر نفسه, ج7, ص504.
16- المصدر نفسه, ج7, ص504
17- أخرجه ابن ماجه من حديث أنس τ, رقم 2431.
18- فتح الباري, المصدر السابق, ج7, ص 504.
19- روح المعاني, المصدر السابق, ج21, ص505.

يحسن الكتابة؛ وعلىٰ أنّ قوله بعد ذٰلك: صلى الله عليه وسلم فكتب)) فيه حذف تقديره "فمحاها فأعادها لعلي فكتب", وبهٰذا جزم ابن التين."[20].

وأنا هنا أورد روايتي المسور بن مخرمة, والبرَاء بن عازب ψ:

1) حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم: وفيه " ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب, فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : {اكتبm }, فقال سهيل بن عمرو: صلى الله عليه وسلم لا أعرف هٰذا, ولكن اكتب باسمك اللّهم))؛ {هٰذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلَ بن عمرو}, فقال سهيل بن عمرو: صلى الله عليه وسلم لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك, ولكن اكتب: هٰذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو))؛ {علىٰ وضع الحرب }."[21]؛ وليس فيه ذكر من كتب العبارة, وظاهره يفيد أنه عليّ, ولو كتبها حقّا لكانت جديرة بالتنبيه, إذ لم يعتادوا تفويت مثل هٰذه الأنباء.

2) حديث البراء بن عازب: وفيه "لما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الحديبية, كتب عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم كتابا, فكتب: "محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقال المشركون: صلى الله عليه وسلم لا نكتب محمّدٌ رسول الله, لو كنت رسولا لم نقاتلك)), فقال لعليّ: {أمحه}, فقال عليّ: صلى الله عليه وسلم ما أنا بالذي أمحاه)), فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده, وصالحهم علىٰ أن يدخل هو وأصحابه"[22], وفي رواية أيضا: "فلما كتبوا الكتاب, كتبوا "هٰذا ما قاضىٰ عليه محمّد رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقالوا: صلى الله عليه وسلم لا نقرّ بها, فلو نعلم أنّك رسول الله ما منعناك, لٰكن أنت محمد بن عبد الله)), قال: {أنا رسول الله, وأنا محمّد بن عبد الله}, ثم قال لعليّ: {امح رسول الله}, قال: صلى الله

20- فتح الباري, المصدر السابق, ج7, ص 504؛ وراجع التلخيص الحبير, الحافظ ابن حجر, ت: محمد شعبان إسماعيل, مكتبة الكليات الأزهرية, مصر, ط(1399-1979), ج3, ص146.

21- المسند, الإمام أحمد بن حنبل, دار الفكر, بيروت, لبنان, ج4, ص325.

22- رواه البخاري, كتاب الصلح, باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينبه؛ راجع فتح الباري, ج5, ص232.

عليه وسلم لا والله, لا أمحوك أبدا))، فأخذ رسول الله الكتاب فكتب: "هٰذا ما قاضىٰ عليه محمّد بن عبد الله" "[23]؛ فالرواية الأولىٰ عن البراء ليست صريحة في الكتابة عنه صلى الله عليه وسلم , وأما الثانية فإنّها كالنص, إلا أنّها محتملة لورود الروايات الأخرىٰ بخلافها كما سبق في كلام الحافظ رحمه الله.

وأما الأحاديث الأخرىٰ, فالحكم عليها من حيث الجملة, قال الحافظ ابن حجر, "وأجاب الجمهور بضعف هٰذه الأحاديث"[24].

ومن حيث التفصيل:

1) فحديث مجاهد عن ابن عون؛ قال ابن كثير: "وأمّا ما أورد بعضهم من الحديث, أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلّم الكتابة, فضعيف لا أصل له."[25], وقال الحافظ البيهقي: "وأمّا الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله حدثنا مجالد بن سعيد حدّثني عون بن عبد الله عن أبيه: صلى الله عليه وسلم ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ))، قال مجالد: صلى الله عليه وسلم فذكرته للشعبي, فقال: صلى الله عليه وسلم صدق, سمعت من أصحابنا من يذكر ذٰلك)).))؛ فهٰذا حديث منقطع, وفي روايته جماعة من الضعفاء والمجهولين."[26].

2) وقال ابن عطية عن حديث سهل ابن الحنظلية: "قال الإمام القاضي: وهٰذا كله ضعيف, وقول الباجي منه."[27].

3) وأما حديث: {ضع القلم علىٰ أذنك فإنه أذكر لك} فرواه الترمذي بلفظ: {فإنه أذكر للمملي}, وقال: "قال أبو عيسى: هٰذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه, وهو إسناد

23-الفتح,المصدر السابق, ج5, ص232.

24- المصدر نفسه, ج7, ص504.

25- تفسير القرآن العظيم, ابن كثير, (د. دار نشر), ط(1367-1948), ج3, ص418.

26- السنن الكبرى, البيهقي, ت: محمد عبد القادر عطا,مكتبة دار الباز, مكة المكرمة, ط(1414-1994), ج7, ص42.

27- المحرر الوجيز, ابن عطية, ت: عبد السلام عبد الشافي محمد, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط(1413), ج4, ص322.

ضعيف؛ وعنبسة بن عبد الرحمن ومحمد بن زاذان يضعفان في الحديث."[28]؛ ورَمز له السيوطي بحرف (ض), أي ضعيف؛ قال المناوي: "وزعم ابن الجوزي وضعه, والصواب أنه ضعيف فقط"[29]؛ قال المناوي: "وردّه ابن حجر بأنّه ورد من طريق أخرىٰ لابن عساكر, وورود بسندين مختلفين يخرجه عن الوضع"[30].

أورد الحافظ الطريق الأخرى في لسان الميزان, عن يونس الصدائي عن حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه: "كان معاوية كاتب النّبي صلى الله عليه وسلم , كان إذا رأىٰ من النّبي صلى الله عليه وسلم غفلة, وضع القلم في فيه, وقال: {يا معاوية إذا كتبت كتابا ضع القلم }"؛ قال: "وقال الحاكم وأبو سعيد النقاش: صلى الله عليه وسلم روى –أي الصدائي هٰذا– عن حمُيد الموضوعات.))."[31].

4) وأما حديث {ألق الدواة }, فلم أجد من تعرّض له, وهو يدخل في الحكم العام الذي أطلقه الحافظ ابن حجر, وسنده هٰكذا: قال السمعاني: "أخبرنا أبو الوليد صاعد بن عبد الرحمٰن بن مسلم الحيزراني بسارية ثنا أبو اليسر أنا أبو العباس المستغفري الحافظ أنا أبو ذرّ عمار بن محمّد البغدادي أنا أبو محمّد الحسن بن علي برأس العين ثنا أحمد بن عامر ثنا أحمد بن عبد الواحد حدثنا الوليد بن مسلم ثنا يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول قال قال معاوية رضي الله عنه : صلى الله عليه وسلم كنت أكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم , فقال: {يا معاوية ألق الدواة, وحرف القلم, وانصب الباء, وفرق السين, ولا تقور الميم, وحسن الله, ومدّ الرحمٰن, وجود الرحيم}.))."[32].

28- السنن, محمد بن عيسى الترمذي, ت: عبد الرحمن عثمان, دار الفكر, بيروت, لبنان, ط2(1403-1983), ج4, ص167.

29- فيض القدير, عبد الرءوف المناوي, دار الفكر, بيروت, لبنان, ط2(1391-1972), ج4, ص255.

30- المصدر نفسه, ج4, ص255.

31- لسان الميزان, الحافظ ابن حجر, ن: دائر المعرفة النظامية(الهند), مؤسسة الأعلمي للمطبوعات, ط3(1406-1986), ج6, ص333.

32- أدب الإملاء والاستملاء, السمعاني, ت: ماكس فايسفايلر, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1(1401-1981), ج1, ص170

الوليد بن مسلم ثقة من رجال الشيخين لكنه يدلّس تدليس التسوية, فالحديث ضعيف للعنعنة عند مكحول[33], ثم على فرض صحته فليس صريحا في الموضوع.

5) ولم أجد أيضا قوله: {ولا تمد بسم الله}, ورأيت في أدب الإملاء للسمعاني حديثا بمعناه, عن أنس رضي الله عنه قال: صلى الله عليه وسلم خرج علينا غلام النبي صلى الله عليه وسلم يبكي فقال ممّ بكاؤك قال ضربني رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا لم ذاك قال مددت الباء قبل السين فيm))[34], وفي سنده عمرو بن جميع, كذبه يحيىٰ بن معين, وضعفه أبو حاتم[35], فهو ضعيف بهذا الإسناد.

قد ورد في أحاديث, أنه صلى الله عليه وسلم لم يضرب أحدا إلا الجهاد.

وأمّا حديث ليلة الإسراء فرواه ابن ماجه رحمه الله, وقال الألبانيّ: "ضعيف جدًّا"[36]؛ وعلىٰ فرض صحّته, فإنه رُدّ باحتمال إقدار الله تعالىٰ إيّاه 📖✍ عليها بدونها[37], -أي الكتابة-, أو فيها مقدر وهو سألت عن المكتوب فقيل: الخ[38].

وبناء على ما مضىٰ من الحكم على الأحاديث وكونها ضعيفة لا تقاوم الأصل, فإن الحكم بأن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة قبل موته أمر دونه مفاوز؛ وأما القصّة التي في البخاري فإنها محتملة, فبطل الاستدلال بها, وسيأتي في الترجيح استنباط الحكم منها, -إن شاء الله- فبقيت الآية علىٰ ظاهرها, وتعطّل مفهومها, لأنه لا دليل عليه.

عرض قول من منع الكتابة في حقه صلى الله عليه وسلم

هٰذا مبحث قول جمهور العلماء, نعرضه الآن:

33- راجع السلسلة الضعيفة, الألباني, مكتبة المعارف الإسلامية, الرياض, المملكة العربية السعودية, ط1(1408-1988), ج3, ص312.

34- أدب الإملاء, المصدر السابق, ج1, ص170

35- الجرح والتعديل, عبد الرحمن بن أبي حاتم, دار إحياء التراث العربي, بيروت, لبنان, ط1(1371-1952), ج6, ص224.

36- ضعيف ابن ماجه, الألباني, المكتب الإسلامي, دمشق, سورية, ط1(1408-1988), ج1, ص188.

37- خطأ والصواب من دونها أو دونها من غير حرف الجر.

38- روح المعاني, المصدر السابق, ج21, ص505.

اشتد النّكير من العلماء[39] على من ادّعى بأن النبي صلى الله عليه وسلم كتب, حتى رموه بالزندقة, بل كفر بعضهم القائل بذلك, ومما يروى فيه من القصص, ما حكاه الحافظ ابن حجر, قال: "ووقع لأبي محمد الهواري معه قصّة في منام رآه, ملخصه أنه كان يرى مما[40] قال الباجي, فرأى في النوم قبر النبي صلى الله عليه وسلم ينشق ويميد ولا يستقرّ, فاندهش لذلك, وقال في نفسه: لعل هذا بسبب اعتقادي, ثم عقدت التوبة في نفسي, فسكن واستقر, فلما استيقظ, قصّ الرؤيا على ابن معور, فعبرها له كذلك, واستظهر بقوله تعالى: ﴿**تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾ [مريم 90] "[41].

وتنحصر أدلة هؤلاء فيما يلي:

1) قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ**﴾ الآية, فهي صريحة في نفي الكتابة عنه صلى الله عليه وسلم , وأنه لو كان يكتب لكان للمبطلين فيه ارتياب[42].
2) وقوله: ﴿**الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيءَ الأُمِّيَّ الذِي يَجِدُونَهُ**﴾[الأعراف 157].
3) وقوله: ﴿**فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيءِ الأُمِّيّ**﴾ [الأعراف 157].
4) وقوله: ﴿**هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ [الجمعة 2].
5) قول النبي صلى الله عليه وسلم : {إنّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب} [43].

فهذه أدلة على أميّته صلى الله عليه وسلم , وليس ينقل عنها إلا دليل صحيح صريح, وليس هناك من هذا شيء.

39- ابن كثير, المصدر السابق, ج3, ص417.

40- كذا فيه.

41 - التلخيص الحبير, المصدر السابق, ج3, ص146.

42- انظر روح المعاني, ج21, ص504.

43- رواه البخاري, رقم 1319, كتاب الصوم, باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا نحسب؛ ومسلم, 1080-15, كتاب الصوم, باب وجوب صوم رمضان لرؤيته.

والأميّ في الأصل هو المنسوب إلى الأمّة, التي هي جنس الأمّيين, وهو من لم يتميز عن الجنس بالعلم المختص من قراءة أو كتابة, كما يقال عاميّ, لمن كان من العامّة, غير متميز عنهم بما يختص به غيرهم من علوم, وقد قيل إنه نسبة إلى الأمّ, أي هو الباقي على ما عوّدته أمّه من المعرفة[44].

مناقشة أدلتهم:

ناقش أصحابُ الرأي الأوّل القائلون بأنّه صلى الله عليه وسلم تعلّم الكتابة, الأدلّةَ السابقة بما يلي:

بالنسبة لآية العنكبوت فإنها موضع استدلال عليهم لا لهم, إذ يفهم منها أنه عليه الصلاة والسلام كان قادرا على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب, ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة[45].

وكونه عليه الصلاة والسلام أميّا, حسب آيتي الأعراف, فإنه يقال أن ذٰلك قبل الإسلام, فلما نزل واشتهر الإسلام, وظهر أمر الارتياب, تعرّف الكتابة حينئذ[46].

وأمّا آية الجمعة وحديث ابن عمررضي الله عنه, فالحكم للغالب لا لما ندر[47], فهم أمّيّون, والأمّة أمّيّة, لأن أكثرهم كذٰلك, وقد كان فيهم الكتبة قليلا[48].

إذن, فعندهم أنه لا منافاة ولا تعارض بين ما ذكره القرآن الكريم والحديث, وبين ما قرّروه من إجازة الكتابة على النبي صلى الله عليه وسلم , لأنّه بعد تحقق أميته, وتقرّر معجزته, وأمن ارتياب أهل الكتاب, فليس فيه ما يحول دون معرفته الكتابة, من غير تعلم أو معلم, فتصير عند ذلك معجزة ثانية.

44- مجموع الفتاوى, شيخ الإسلام ابن تيمية, جمع عبد الرحمن القاسم, (د.ت), (د.دار نشر), (د.ط), ج25, ص172.

45- روح المعاني, المصدر السابق, ج21, ص505.

46- روح المعاني,المصدر السابق, ج21, ص505.

47- السير,المصدر السابق, ج18, ص541.

48- المصدر نفسه, ج18, ص541.

الخاتمة:

لعلّ الأمر أضحىٰ واضحا من خلال المطالب الماضية, إذ أن بعض الأدلّة لم يستطع مقاومة بعضها الآخر, وقد أبدىٰ لي جليا البحثُ الرأيَ الصواب والكلام الحق في حكم كتابته ﷺ.

وها أنا الآن أخلص إلى النتائج الآتية:

1) لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم كاتبا ولا قارئا, ولا تعلم الكتابة قطّ, فالقرآن صريح في ذلك في غير ما آية, وأما من استدلّ بالمفهوم, فيقال له: إن الأمر عقدي, وكونك تستدل بالمخالفة, لا يوافقك عليه علماء كثر, وخاصة من الأحناف, قال الخفاجي: "وتقديم قوله: ﴿**مِن قَبْلِهِ**﴾ علىٰ قوله: ﴿**وَلاَ تَخُطُّهُ**﴾ كالصريح فيه, وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطّرد, مع أنه مفهوم ليس بحجّة عندنا, فمن استدل به لم يصب."[49].

2) أن قصّة يوم الحديبية أمر متشابه, وذٰلك لاختلاف الروايات, ولذلك نرده إلى المحكم, وهو عدم الكتابة, وأمّا الحالة هذه, فأستطيع أن أقول بما قاله الذهبي رحمه الله: "يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب اسمه ليس إلاّ, ولا يخرج بذٰلك عن كونه أميّا؛ ومن كتب اسمه من الأمراء والولاّة إدمانا يعدّ كاتبا؟ فالحكم للغالب لا لما ندر؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام: {إنّا أمّة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب} [50], أي لأن أكثرهم كذٰلك, وقد كان فيهم الكتبة قليلا,؛ فقوله ʊ: {لا نحسب} حقّ, ومع هٰذا فكان يعرف السنين والحساب, وقسم الفيء, وقسمة المواريث بالحساب العربي الفطري, لا بحساب القبط, ولا الجبر والمقابلة, بأبي هو ونفسي صلى الله عليه

49- شهاب الدين الخفاجي, حاشية الشهاب, ت: عبد الرزاق المهدي, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1(1417-1897), ج7, ص359.

50- سبق تخريجه.

وسلم , وقد كان سيّد الأذكياء, ويبعد في العادة أن الذكيّ يملي الوحي وكُتب الملوك وغير ذٰلك, على كتّابه, ويرى اسمه الشريف في خاتمه, ولا يعرف هيئة ذٰلك, مع الطول, ولا يخرج بذٰلك عن أميّته, ؛ بل قد يقال: لو قال مع طول مدّة كتابة الكتاب بين يديه, لا أعرف أن أكتب اسمي الذي في خاتمي, لارتاب المبطلون, ؛ ولَقالوا هو غاية في الذكاء, فكيف لا يعرف ذلك؟ بل عرفه وقال لا أعرف, فكان يكون ارتيابهم, وأكثر وأبلغ في إنكاره؛ والله أعلم."[51].

ومع هٰذا, فإن الذي ترتاح إليه النفس, ويطمئن إليه البال, هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب يوم الحديبية, ويشعر هنا بذٰلك قوله في بعض طرقه, لما امتنع الكاتب أن يمحو لفظ رسول الله, قال له النبي صلى الله عليه وسلم : {أرني}, فمحاه, فإن ظاهره أنه لو كان يعرف الكتابة, لما احتاج إلى قوله {أرني}, فكأنه أراه ابن عبد الله بدل رسول الله[52].

3) عدّ بعض العلماء ما كتبه يوم الحديبية من معجزاته, لكونه لا يعرف الكتابة وكتب[53]؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكان انتفاء الكتابة عنه مع حصول أكمل مقاصدها بالمنع من طريقها من أعظم فضائله, وأكبر معجزاته, فإن الله علّمه العلم بلا واسطة كِتاب معجزة له؛ ولما كان قد دخل في الكتب من التحريف والتبديل, وعلّم هو صلى الله عليه وسلم أمّته الكتاب والحكمة من غير حاجة منه إلىٰ أن يكتب بيده, وأمّا سائر أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم, فالغالب على كبارهم الكتابة, لاحتياجهم إليها, إذ لم يؤتَ أحد من الوحي ما أوتيه, صارت أميته المختصّة به كمالا في حقّه, من جهة الغِنى بما هو أفضل منها وأكمل, ونقصا في حق غيره من جهة فقده الفضائل التي لا تتم إلا بالكتابة."[54].

51- السير,المصدر السابق, ج18, ص541/540.

52- التلخيص الحبير, ج3, ص146.

53- مجموع الفتاوى,المصدر السابق, ج25, ص172.

54- مجموع الفتاوى,المصدر السابق, ج25, ص172.

هٰذا ما قيّضه الله تعالى وعزّ شأنه من مادّة علمية أثناء الجمع؛ أسأل الله العليّ القدير أن يتقبّل مني صالح عملي, ويعفو عن زللي, وينفع به, ويحشرنا والمسلمين في جنّات النعيم, وصلّى الله على خير خلقه النّبي الأميّ محمّد وعلىٰ آله وصحبه, وسائر أمّته الأميّة إنّه وليّ ذٰلك I ؛ والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

1. أدب الإملاء والاستملاء, السمعاني, ت: ماكس فايسفايلر, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان
2. ترتيب المدارك, القاضي عياض, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان
3. تفسير القرآن العظيم, ابن كثير, (د. دار نشر), ط(1367-1948)
4. التلخيص الحبير, الحافظ ابن حجر, ت: محمد شعبان إسماعيل, مكتبة الكليات الأزهرية, مصر
5. الجامع لأحكام القرآن, القرطبي
6. الجرح والتعديل, عبد الرحمن بن أبي حاتم, دار إحياء التراث العربي, بيروت, لبنان
7. حاشية الشهاب, شهاب الدين الخفاجي, ت: عبد الرزاق المهدي, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان
8. روح المعاني, سيد محمد الألوسي, دار الفكر, بيروت, لبنان
9. السلسلة الضعيفة, الألباني, مكتبة المعارف الإسلامية, الرياض, المملكة العربية السعودية, ط1(1408-1988)
10. السنن الكبرى, البيهقي, ت: محمد عبد القادر عطا,مكتبة دار الباز, مكة المكرمة
11. السنن, محمد بن عيسى الترمذي, ت: عبد الرحمن عثمان, دار الفكر, بيروت, لبنان
12. سير أعلام النبلاء, شمس الدين الذهبي, ت: محمد نعيم العرقسوسي وشعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة, بيروت, لبنان
13. ضعيف ابن ماجه, الألباني, المكتب الإسلامي, دمشق, سورية, ط1(1408-1988)
14. فتح الباري, الحافظ ابن حجر, ت: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب, دار المعرفة,بيروت لبنان
15. فيض القدير, عبد الرءوف المناوي, دار الفكر, بيروت, لبنان

16. كتاب الإشارة, أبو الوليد الباجي, ت: محمد علي فركوس,المكتبة الملكية, مكة المكرمة
17. لسان الميزان, الحافظ ابن حجر, ن: دائر المعرفة النظامية(الهند), مؤسسة الأعلمي للمطبوعات, ط3(1406-1986)
18. مجموع الفتاوى, شيخ الإسلام ابن تيمية, جمع عبد الرحمن القاسم, (د.ت), (د.دار نشر), (د.ط)

المحرر الوجيز, ابن عطية, ت: عبد السلام عبد الشافي محمد, دار الكتب الع